(١)

هذه الرحلة :

دراسة وتأمل

"ما استحقت الحياة أن نعيشها ما لم نتأملها جيداً"

(سقراط ، فيلسوف اليونان الحكيم)

يشهد إنسان هذا العصر وضعاً مقلقاً للغاية وحالة فريدة لم يسبق لها مثيل في تاريخه الطويل ، الأمر الذي يجعله أحوج من أي وقت مضى لوقفة تأمل ومراجعة وهو يرسم خطاه للولوج في سنوات الألفية الثالثة من تاريخه المُدون. نحن نعيش في الوقت الراهن عالماً تَشَيَّأ فيه الإنسان، أي تحولت فيه صفاته الإنسانية إلى أشياء جامدة ، وأضحت علاقاته مع أقرانه علاقات آلية غير حميمة ولا شخصية ، كما امتُهن فيه جسده إلى حد أن أعلن الخطاب الفلسفي المعاصر عن موته . واعتقد بعض الناس – بناءً على ما شاهدوا حولهم من أوضاع وما عايشوه من أحوال وأهوال – أن نهاية العالم قد قربت، وأن الجنس البشري في طريقه حتماً إلى الفناء . رأى هؤلاء أن عالم اليوم يعاني من مشكلات عديدة، وأن أخطاراً جساماً تواجه البشرية جمعاء ، وأن مواجهة هذه الأخطار المحدقة التي تحيط بنا من كل صوب تقع على الجميع ؛ فإما البقاء أو الفناء. فقد حدث – في رأيهم – تدهور سريع في تحضر الإنسان، وانتكاس مؤلم لقيمه وتقاليده المتوارثة ، وانهيار مؤسف في أخلاقياته . هذا إلى جانب الخسارة الفادحة التي حلت بخضرة أرضه وتلوث مياهها ،

والأضرار البالغة التي لحقت بهواء سمائه. ولقد عَمّ الفقر أيضاً لدى أعداد غفيرة من أفراد غالبية الشعوب في حين تَفردَت بالغنى واقتناء الثروات وفرض الهيمنة شعوب قليلة جداً على حساب شعوب أخرى عديدة .

ولعل من بين أهم وأخطر القضايا الإنسانية التي لا يزال يعاني منها الإنسان منذ تاريخه القديم حتى اليوم مسألة الصراع بين الذات والآخر، و العنصرية التي تشيع لدى بعض الأفراد والشعوب ، والتي أدت إلى حروب وصراعات طاحنة، فقد شهد القرن العشرين بالذات حربين عالميتين مدمرتين إلى جانب العديد من الحروب المحلية والإقليمية وبخاصة تلك التي حدثت خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، وما يجري في الوقت الحاضر من غزوات وحشية وهجمات بربرية استهدفت التطهير العرقي، والسطو على الأرض، وانتهاك العرض وإذلال البشر. وعلى الرغم من أن القرن العشرين هو العصر الذي تبلورت فيه حقوق الإنسان، فإنه العصر الذي شهد انتهاكها أيضاً. ومع أن القرن العشرين قد شهد أيضاً قيام عصبة الأمم عام ١٩٢٠ ومنظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٦ بما لهما من مواثيق ومبادئ هدفت إلى تنظيم العلاقات الدولية فإنه العصر الذي لم يُحترم فيه القانون الدولي ، والذي دُنست فيه قدسية كلمة الشرف ، والتحلل من الالتزام بالتعهدات واحترام الدول للاتفاقات. وبالرغم من صيحات المصلحين بالدعوة إلى التسامح والتعاون بين الشعوب من منطلق الفهم والاحترام المتبادل للثقافات فقد سادت شريعة الغاب واستمرت مشاعر الاستعلاء في كثير من بقاع العالم .

هذا بإيجاز شديد ذِكْر لبعض معالم عالم الإنسان المعاصر بصفة عامةً ؛ فماذا عن عالمنا العربي بوضعه الجغرافي وإطاره الثقافي وموقعه الحضاري في عالم

اليوم وغداً؟ . فالعالم العربي من المحيط إلى الخليج جزء لا يتجزأ من هذا العالَم الكبير الذي أصبح متقارباً ومُتأثراً بعضه ببعض إلى حد أن أصبح بمثابة "قرية كونية" كما يقال . إن مشاكل العالم وقضايا الإنسان المعاصر، أينما كان، تنعكس آثارها ولا شك على الإنسان العربي سواء أكان ذلك في فكره أم معيشته. ويستفحل الأمر عندما يكون للإنسان العربي – فضلاً عن المشكلات العالمية – مشكلاته الخاصة والتي لدية منها الكثير من فقر وتخلف ، ونزاعات وحروب ، وصراعات على الحدود وتبعية ورضوخ ، وحقد وتناحر بين البلد وجاره ، وإرهاب داخلي وخارجي ، وانهيار لكثير من القيم ، وتفكك في بنية الأسر، ونزوح خارج الأوطان ، ناهيك عن مشكلات الاقتصاد والكساد والبطالة .

إن الباحث المدرك لأبعاد الواقع العربي ، والقارئ المُتمعن لما يدور من نقاش وحوار في ساحة الفكر العربي ليرى أنه يتناول – في حقيقة الأمر – مشروعاً انثروبولوجيا تتعدد قضاياه وتتباين مداخله التحليلية وبرامجه العملية . فالفكر العربي – في نظرنا – يدور أساساً في جوهره ومقصده حول الإنسان العربي، فهو عنه وله؛ وكما يبحث هذا الفكر عن ماضيه وحاضره فهو أيضاً يستشرف مستقبله . وفي هذا الإطار ، يكون الحديث عن الأنثروبولوجيا فكراً ومنهجاً لفهم قضايا الإنسان ودراستها مُعيناً للفكر العربي في مشروعه الحضاري الذي يأمله لحاضر العرب ومستقبلهم جميعاً .

إن الأفكار التي تتضمنها مقالات هذا الكتاب لا تمثل دراسة أكاديمية عن ماهية الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) ومجالاتها، ولا هو سَرد لمفاهيمها ومناهجها أو نظرياتها المتعددة ، بل كان القصد منه تقديم عرض لبعض جوانب الفكر

الأنثروبولوجي فيما يتصل بذات الإنسان وعالَمه المعاصر . فهذا الكتاب يتضمن التعرف على هذا العِلم الذي يتخذ من الإنسان موضوعاً رئيسياً ليدرسه عبر الأزمنة والأماكن في إطار شمولي، باعتبار الإنسان كائناً بيولوجيا ، ومُبدعاً اجتماعياً، ومُنتجاً ثقافياً ، وصانعاً لحضارة تلو الأخرى . إن هدفنا الأساسي من وضع هذا الكتاب هو الدعوة إلى التأمل في ذات الإنسان ، الكائن الحي الفريد من نوعه من ناحيتي خَلقه البديع ومُنتَجه الثقافي الإبداعي . هذا الإنسان الذي يغلف سلوكه ، مع ذلك ، بأكثر من قناع حضاري وقانوني بل ديني أحياناً لتبرير أعمال هدم الإعْمار ، وتخريب البيئة، وإبادة البشر في عمليات قتل جماعي، الأمر الذي يجعل المرء في حاجة الآن – وهو على عتبة أبواب عصر جديد – أن يعيد موقفه الفكري حيال الصورة التي أَلفها عن نفسه عبر الزمان ، ويُرجع البصر في الشرعية التي منحها لنفسه ليرقى بذاته ويحط من قدر الآخر . لقد حان الوقت ليسأل الإنسان نفسه ، وفي جِديةٍ وتأمل معاً ، من أنا حقاً ؟ وإلي أين أسير؟

تتضمن دعوتنا أيضاً ضرورة أن يتعرف القارئ على بعض قضاياه التي تمتد جذورها إلى عهود سالفة ولازالت متأصلة ومستمرة، وإن كانت تتشكل من حين إلى آخر في أُطر جديدة وفق مقتضيات كل عصر وفكر كل زمان . ولقد توخينا عند وضع مادة مقالات هذا الكتاب التقليل من العرض الأكاديمي التقليدي كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، كما ابتعدنا – قدر الإمكان – عن الأسلوب المنهجي التخصصي لكي يَسهل على الجميع قراءة هذا الكتاب، ويتحقق النفع العام لدى القارئ الراغب في تفهم ذاته بوصفه إنسانا، والتعرف على قضاياه من حيث هو فرد يعيش الآن في مجتمع عالمي يُؤثر فيه ويَتأثر به . ولقد حرصنا أيضاً في إعداد مادة المقالات التي يضمها هذا الكتاب على إبراز الترابط القائم بين صنوف المعرفة ، والتأكيد على

التواصل القوي بين شتى الأفكار النابعة من الدين والفلسفة والعلم سواء أكان ذلك في بلورة المفاهيم أو صياغة النظريات في العلوم الاجتماعية والإنسانية عامةً . وفضلاً عن ذلك فقد أوردنا في نهاية كل فصل بعض المقتطفات من النصوص الأدبية والكتابات العلمية والأطروحات الفلسفية ذات الصلة بموضوع المقالات ليقف القارئ على الرؤى المتعددة للفكر، والاهتمامات المشتركة بين مدارك المعرفة حول قضايا الإنسان وحياته .

يبدأ حديث الرحلة في هذا الكتاب ببيان أولي ، موجز وبسيط، عن الأنثروبولوجيا ، ذلك العلم الذي يدرس الإنسان من منظور طبيعي أساساً وحضاري أيضاً . فمن أساسيات هذا العلم ، ومن مباهجه أيضاً ، أنه يثير التساؤلات حول نشأة الإنسان ، وتطور حياته عبر الأزمنة أينما وُجد، مستعيناً في ذلك بشتى ضروب المعرفة ، وساعياً بمناهجه وفروضه ونظرياته أن يجيب على تلك التساؤلات التي طرحها الإنسان من قديم الزمان عن نفسه وغيره، بل عن الكون من حوله أيضاً . ومن الطريف أن نجد في كل عصر، وفي مختلف الأماكن، طرحاً مستمراً لتلك التساؤلات، وفهماً جديداً لها، ومحاولة بعد أخرى للكشف عن أسرارها . فالأنثروبولوجيا – على الرغم من حداثتها النسبية في تاريخ العلوم الطبيعية والإنسانية – فإن موضوعها وهدفها لهما جذوراً تضرب في أعماق التاريخ ، وستظل اهتماماتها وأهدافها قائمة اليوم وغداً ؛ ولم لا وهي عن الإنسان وعالَمه؟!

تبدأ رحلة الكاتب مع القارئ من محطة " الهوية " لِيُلقي نظرة على ذلك الكائن الفريد في نوعه وخصائصه، والذي يشكل – في واقع الأمر – جوهر الحياة الإنسانية ومحورها على هذا الكوكب الأرضي ؛ إنها محطة الإنسان ، التي تزخر بمعلومات

عنه من شتى العلوم والمدارك المعرفية، والتي أوضحت لنا – حتى اليوم – أنه ليس هناك مفهوم واحد شامل عن الإنسان، ومع ذلك فقد كان لوقفتنا هذه إفادة لما أطلعنا القارئ عليه من الصور المتعددة والرؤى المتباينة لهذا الكائن العضوي الراقي ... ألا وهو الإنسان .

فالتصور الديني مثلاً يعتبر الإنسان مخلوقاً عابداً لخالقه سبحانه وتعالى، وما برح هذا الفكر مهيمناً على السواد الأعظم من الأفراد في كثير من المجتمعات ، حتى تلك التي تجاهر بعدائها للدين . أما الفلاسفة فقد شكل الإنسان محور اهتمامهم ، فأصبح موضوع دراسة وتأمل من نواحٍ شتى مثل الجمال والكمال، هذا فضلا عن تفرد الإنسان أيضاً بسمات العقلانية والإرادة، والقدرة على السمو كما جاء ذلك بشكل خاص في فكر الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" Frederick Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠) . وهناك جدل دائر ومناظرات جادةً منذ زمن بعيد ولاتزال بين الفلاسفة ورجال الدين، فيما يتعلق بارتباط الإنسان بالخالق أو تنصله منه، وفيما يتصل أيضاً بمفهوم الإنسان الكامل ومضمونه . وإذا كان المنظور الديني للإنسان نابعاً من الكتب المقدسة والإيمان المطلق بها، فالرؤى الفلسفية المتعددة قائمة أساساً على العقل والتجريد .

ويترك القطار محطة "الهوية " متوجهاً إلى محطة " الجسد " ليأخذ القارئ في رحلة دَرس وتأمل لجسد الإنسان (أو الجسم البشري، وهي العبارة الأكثر تداولاً وشيوعاً في الكتابات العربية) . وإنها لرحلة عجيبة حقاً ، إذ إن الجسم البشري يتميز بكونه قطعة فنية غاية في الروعة والإتقان ؛ الأمر الذي داعب خيال الفنانين وشغل فكر الفلاسفة والأدباء كما حظي بقدر كبير من اهتمام العلماء، فقام

الفنانون برسم ونحت أعداد لا تحصى من الرسوم والتماثيل التي تصور الجسم البشري في أوضاع وأحجام شديدة التنوع، كما عكف العلماء على سبر أغوار تلك التركيبة السحرية التي تنظم عمله . وقد حدث تطور كبير في طرائق دراسة جسم الإنسان، وذلك من خلال الاستفادة من التقنيات المتطورة . وفي هذا الصدد نقرأ عن عدة مشروعات كبيرة وطموحة للتصوير الفوتوغرافي والإشعاعي المتناهي الدقة، نذكر من بينها المشروع الأمريكي الكبير لترجمة جسد فعلي – من دم ولحم – إلى بيانات إلكترونية تجعلها صالحة للاستخدام كموضوع فني ، وكمثال طبي في الوقت نفسه .

ومن الطريف أن نجد أن الاهتمام بجسد الإنسان لم يقتصر على الأحياء ، بل شمل الموتى أيضاً . فلاتزال مثلاً عملية تحنيط الجسد كما تمت في مصر القديمة موضوعاً يحظى بالدرس والتحليل إلى حد أنه أصبح يشكل علماً في ذاته . ولعل ما قدمه متحف "مانهايم" بألمانيا في خريف عام ١٩٩٥ من عرض تشريحي / فلسفي كامل للإنسان بعنوان "عوالم الجسد" مُركزاً على حالة الموت لدليل على استمرارية الاهتمام بالإنسان بجسده وعقله، بحياته ومماته . وفي عام ١٩٩٧ خصص متحف "هود" (Hood Museum) للفنون بالولايات المتحدة معرضاً عن "صُوَر الجسد" ، وكان هدف المعرض توضيح الصور الجمالية والأنساقية للجسد وإبراز مدى التعقيد التشريحي لمكوناته بما فيه من فن وتقنية ومعرفة طبية .

وتستمر الرحلة في طريقها بعد هاتين الوقفتين في محطة " الهوية " أولاً ثم في محطة "الجسد" ثانياً، وتَغذَّ السير قُدماً ليجد القارئ أن فكره قد انجذب إلى عوالم أخرى فسيحة الأرجاء يتعذر إحصاؤها ويصعب فك رموزها كلية . إنه الكون

الهائل العظيم ؛ عوالمه متعددة ولا متناهية ، وإن كانت مترابطة ومتناسقة . إنها لوقفة تأمل وتساؤل في محطة "الكون" : أين نحن البشر في هذا الكون؟! ، إذ لا مفر من أن تنبهر أعين الرحالة المتجولين في أرجائه بما ترى، وتزداد ضربات قلوبهم رهبة وخشية . فالعقول لم تَكف أبداً عبر الزمان عن التساؤل عن هذا النظام البديع ، والخلق الجميل ، والكيان الممتد الذي اسمه "الكون" . فالكون، مثله في ذلك مثل الإنسان ، حيكَتْ عنهما الأساطير، وحكيت الروايات، وتأملتهما الفلسفات، ونسبتهما الأديان إلي خالقهما، كما اجتهد العلماء في سبر أغوار عوالمهما . ولا يزال الفكر مشغولاً بهما حتى الآن، إذ إنهما يشكلان متصلاً تراثياً في عقول كل الناس، وفي ثقافات الشعوب وحضارات الأمم جميعها . فالإنسان ما فتئ يراجع فهمه عن الكون ويتعمق في دراسته، إذ ليس في وسعه أن يتخلى عن سعيه في تعقل الوجود وفهم العالم من حوله وتحديد مكانه فيه لعله يجد في ذلك سبيلاً إلى إعادة توازنه مع الطبيعة، ودرء مساوئ بيئته المتدهورة التي تهدد بقاء جنسه البشري .

ومن الكون تُستأنف الرحلة وتواصل طريقها ، وينشغل ذهن القارئ مرة أخرى بالإنسان من حيث ذاته وعلاقته بالآخر من بني جنسه ، فبقدر أهمية علاقة الإنسان بالكون والطبيعة في تشكيل حياته تكون علاقة الذات بالآخر؛ فكلاهما أمران جوهريان لصنع الحضارة الإنسانية . ولعل ما يجده القارئ في محطة " الشعوب " من فرصة للمعرفة والتأمل قد يؤكدا له الحقيقة التي مُفادها أن الذات والآخر لن يكسبا شيئاً من التحيز ضد بعضهما ، وأن الأذى البدني والنفسي والاجتماعي الناتج عن العنصرية والاضطهاد يصيب كلاهما بنفس القدر. فقد أضحت الاعتمادية والمسئولية المشتركة لجميع الشعوب في هذا العصر لوازم أساسية لمواجهة تحديات الحفاظ على استمرارية الحضارة الإنسانية وتقدمها .

فإذا نظرنا إلى الإنسان من منظور تكاملي باعتباره وحدة جسمية نفسية اجتماعية متفاعلة لا يحددها أساس واحد سواء أكان بيولوجياً أو بيئياً أو ثقافياً، وإنما يدخل في تشكيل هذه الوحدة التي تكوّن الإنسان مجموعة مترابطة من التأثيرات والتفاعلات الوراثية والبيئية والاجتماعية ، لأدركنا مدى خرافة "العرقية" والتحيز للعرق والعنصر ، ولتفهمنا أيضاً حقيقة دوافع تصنيفات البشر من حيث ارتباطها بالسياسات والاقتصاديات الغربية بشكل عام ، والفكر العلمي الأوروبي العنصري بشكل خاص . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ، فإن أهمية وقفة قطار رحلتنا عند محطة "الشعوب" ، تكمن في أن كل شعب أياً كان موقعه في خريطة هذا العالم - له ثقافته الخاصة ؛ أي أسلوب معيشته ونظرته للكون والحياة، وأن أي محاولة لهيمنة ثقافة معينة على الثقافات الأخرى تشكل تحدياً كبيراً للحفاظ على التنوع الثقافي للبشر الذي يعد الوسيط والمحرك للإبداع الحضاري الذي ينفرد به الإنسان . ومع أن كل ثقافة تتطور ولا شك عبر عملية تبادلها مع ثقافات أخرى، فإن الخصوصية الثقافية لكل شعب لا بد وأن تبقى .

وكما أن الشعوب تنظر إلى بعضها من منظور الذات والآخر ، فالإنسان عبر تاريخه قد جعل من الذات رجلاً ، والآخر امرأة ، وصار بينهما ولايزال معركة حامية ربما يمكن وصفها بأنها أطول صراع في تاريخ الإنسانية . ولعل من حسن حظ القارئ أن القطار الذي يستقله مع الكاتب ستكون وقفته التالية في محطة "المرأة" . وقد يتساءل القارئ ، لماذا هذه التسمية ، ولماذا هذا السؤال الذي وضع في لافتة المحطة ؛ من أنت أيتها المرأة؟! وهنا يُذكره الكاتب بقول المفكر الفرنسي "بول فاليري" : ألسنا نطرح السؤال ذاته كلما نظرنا إلى المستقبل ، ترى ما الذي يتفاعل في رأس المرأة . وماذا تخبئ وراء جبينها الذي أردنا أن نكرسه للحب ونقيده بتقلباته؟ . إن

وقفتنا عند محطة "المرأة" وقفة قصيرة ، ولأن الحديث عنها يستلزم رحلة خاصة بها ومعها ، سنقدم دراسة أولية عن بعض المسائل ذات الصلة بمكانة المرأة ووضعها في الوقت الراهن وثقافتها مستقبلاً في ضوء التطورات العلمية والثقافية والتقنية الهائلة التي تسود عالم اليوم .

وتستمر الرحلة في مسارها صُعداً إلى محطتها الأخيرة "الأزمنة" ، فيأخذنا طريقها إلى ربوة خضراء عالية ليُطلا سوياً، القارئ والكاتب، على بشائر العصر الجديد ، وليلقيا معاً نظرة شاملة (بانورامية) على واقع عالم اليوم واحتمالات ثقافة الغد . ومع أن الجو ليس صافياً، فالسحب كثيفة ومتناثرة، والضباب منتشر في بقاع كثيرة ، والشمس ساطعة في أمكنة وغائبة في أماكن أخرى، فسوف نجد أنفسنا أمام زمن آخر ، وعصر جديد، وثقافة حتماً متغيرة . فإن القرن العشرين – الذي يسميه بعض المؤرخين بأعظم القرون هولاً وأكثرها تأثيراً على مسار الإنسانية عامة – قد نقل العالم إلى عصر جديد، وإن كان لا يزال يشكل نفسه ويبلور فكره ويرسم خُطاه. فليس هناك بعد فاصل ثقافي قاطع بين الأمس واليوم والغد، فلايزال عالم اليوم مثلاً متقدماً ومتراجعاً في نفس الوقت، فسكانه يتزايدون وموارده تقل، تقنيته نافعة وهادمة معاً. ومع ذلك فسوف تكون ثقافة الغد – فيما يبدو – مغايرة تماماً لثقافة الأمس واليوم، وبخاصة من ناحيتي إيقاع تغيرها السريع، وفي تخطيها للحدود . سيحدث ولا شك تبدل كبير في حياة البشر ، وتحول سريع في مراكز القوة مجتمعياً ودولياً، وسوف تتغير على الأرجح طبيعة العلاقات بين الذات والآخر ، الرجل والمرأة ، المجتمع والدولة . ففي العصر الجديد قد يفوز الاقتصاد على القيم ، وقد ينتصر السلاح على العدل، وقد تتحول لغة الأرقام إلى "بلايين وبلايين" على حد وصف عالم الفلك الشهير "كارل ساجان" (المتوفى عام١٩٩٧) . وأياً كان الحال

المُرتقب ، فنحن نأمل في مستقبل أفضل ، وحاضرٍ جديدٍ يعي أخطاء الماضي ويدرس عبرَ التاريخ ، فيرد للإنسان آدميته ، ويجسد إنسانية الإنسان ، ويحقق للحياة الإنسانية جوهرها الأصيل .

ولعل القارئ يدرك في نهاية هذه الرحلة أن لكل عصر فكره ، ولكل زمن علمه ، ولكل وقت مشاهيره، ولكل حدث أسبابه ونتائجه. وإذا كان السعي وراء كنه الحقيقة المطلقة لايزال حتى يومنا هذا متعثراً لدى كثير من العقول وجب علينا إذن أن ندرك حقيقة هامة مُفادها أن الدين والفلسفة والعلم معاً يكونون متصلاً معرفياً في تاريخ الإنسانية وحضارتها ، فليس هناك حدوداً معرفية فاصلة أو قاطعة تنزع الأمس عن اليوم وتُنكر صلة اليوم بالغد . فالمستقبل من صنع الحاضر، والحاضر نتاج الماضي الذي يجب ألا يُسقط من الذاكرة أو يُظن أن لا تأثير له ، إذ أن الماضي يبقى حياً ملازماً للحاضر، ومُؤثراً في تشكيل رؤية المستقبل ورسم خطاه .

وأخيراً وليس بآخر ، إن رحلة هذا الكتاب رحلة قصيرة لا بد وأن يتبعها رحلات ورحلات ، سواء خَطَوتها بنفسي وخطها قلمي أو قام بها غيري ، سعياً وراء المزيد من فهم الإنسان وهذا الكون الذي هو جزء منه ، وأملاً في أن يتسنى للناس جميعاً ، ودوماً ، وقفة درس وتأمل ، وفكر وفعل .

(٢)

ما هي الأنثروبولوجيا ؟

من خبرتي الشخصية وجدت في الأنثروبولوجيا مزيجاً إبداعياً
من العلم والفلسفة والأدب والفن

(المؤلف)

بادئ ذي بدء ما هي الأنثروبولوجيا؟ (١) . لنقدم توضيحاً لمعنى مصطلح "الأنثروبولوجيا " الأجنبي الأصل، والمُعرب بمسمى "علم الإنسان"؛ وإن كان بعض الكتاب العرب يطلقون عليها في بعض الأحيان "علم الأناسة" (٢) . وفي مجال التعريف بهذا العلم تفيدنا المعرفة بتاريخه ، حيث بدأ استخدام هذا المصطلح في أوروبا في العقد الأخير من القرن الثامن عشر حين أدرج ضمن مناهج دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان في الجامعات الألمانية (٣) . وهكذا بدأت الأنثروبولوجيا فرعاً من فروع المعرفة العلمية، والتصقت إلى حد كبير بعلوم الأحياء والتشريح . ولذلك ارتبطت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بكليات الطب الجامعية في أوروبا أكثر من غيرها، وكان الاهتمام حينذاك موجهاً أساساً إلى دراسة الاختلافات الجسمية بين البشر. وتجدر الإشارة أن علم التشريح بالذات، واختراع الميكروسكوب أيضاً، كان لهما أثراً كبيراً في تطور الجانب الطبيعي والجسمي في دراسة الإنسان .

وبدخول الأنثروبولوجيا حقبة النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت تتبلور بوصفها علماً توليفياً جديداً يجمع بين المعرفة الطبيعية بالإنسان وتنظيماته الاجتماعية بهدف تفسير علّة التنوع البشري طبيعياً وحضارياً . وسرعان ما اتسعت مع بدايات القرن العشرين آفاق هذا التوجه ، وتعددت موضوعات هذا العلم الحديث ، كما تشعبت تخصصاته . ونتيجة لذلك شهد اصطلاح " الأنثروبولوجيا " عبر عقود هذا القرن تعاريف متعددة وفقاً لاهتمامات الباحثين أنفسهم وتخصصاتهم، ونظراً لطبيعة الفكر السائد أيضاً في كل زمان ومكان . هذا فضلاً عن تأثيرات السياسة والاقتصاد وانعكاساتهما على الفكر محلياً وعالمياً على حد سواء. فلم تعد الأنثروبولوجيا إذن قاصرة تماماً على دراسة الجانب الطبيعي للإنسان كما بدأت ، بل تطرقت إلى حياته الاجتماعية ومُنتجه الثقافي وتطوره الحضاري . وعلى هذا الأساس أصبحت غاية الأنثروبولوجيا وهدفها النهائي – ولو نظرياً على الأقل – الدراسة العلمية للإنسان من منظور شمولي عبر جسده ، ونظم مجتمعاته، ومنتجه المادي والفكري ، ولغاته وأساليب اتصاله ، وكذلك علاقته مع الطبيعة .

ففي دراستها للإنسان نجد أنه لا حد للأنثروبولوجيا من حيث الزمان والمكان ، إذ إن تقصيها يمتد ليشمل العالم بأسره والتاريخ الإنساني برمته، ومع ذلك فإنه لاعتبارات نظرية من جهة، وسياسية من جهة أخرى ، ركز الأنثروبولوجيون في البداية على المجتمعات غير الأوروبية التي سميت مجازاً بالمجتمعات البدائية (٤) ، والتي تتصف بصغر الحجم والانعزالية عن العالم الخارجي ، وبمحدودية العلاقات الاجتماعية وقلة التخصص المهني . وبالرغم من توسع مجال الأنثروبولوجيا وبخاصة عقب نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ لتتناول بالدراسة القرى الريفية والمدن وقطاعات من المجتمعات الصناعية، المعقدة التركيب نسبياً ، إلا أن الاهتمامات

التقليدية للأنثروبولوجيا ظلت قائمة من ناحية الوصف المنهجي لأسلوب حياة المجتمعات البدائية والمحلية ، إلى جانب دراسات آثار ما قبل التاريخ ، ودراسات اللغات واللهجات المحلية. وهكذا تفردت الأنثروبولوجيا عما عداها من العلوم أو الدراسات الأخرى التي تهتم بجانب أو آخر من حياة الشعوب أو نظمها الاجتماعية ، وما يتصل بهما من قواعد وما يوجهها من تقاليد وتعاليم دينية أو قيم إنسانية وقوانين وأعراف .

وقد رأى بعض الباحثين أن التضاد أو التباين بين موضوعات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع بالذات يشكل في واقع الأمر مشكلة زائفة إلى حد القول بأن الأنثروبولوجيا ما هي إلا فرع من علم الاجتماع اختص بدراسة نوع معين من المجتمعات . بيد أن فريقاً آخر يرى في الأنثروبولوجيا مجالاً متخصصاً لدراسة أساليب الحياة الإنسانية في مجملها، في حين يدرس علم الاجتماع المؤسسات المجتمعية، ووسائل تنشئة الفرد في المجتمع . فالأنثروبولوجي يدرس أسلوب حياة جماعة معينة باعتبارها كلا مترابطاً وبطريقة مباشرة، في حين أن عمل "السوسيولوجي" أو عالم الاجتماع يتصف بالتخصص في دراسة ظاهرات اجتماعية كالطلاق أو الجريمة مثلاً معتمداً بصفة رئيسية على الوثائق والإحصائيات ونتائج المقابلات المقننة . ومع وجود هذه الاختلافات التقليدية بين العلمين ، فالأنثروبولوجيون والسوسيولوجيون الآن يجمعون مادتهم العلمية بمناهج وصفية ووسائل كمية مشتركة . ويتحدد الاختيار عادةً وفق طبيعة المشكلة موضع الدراسة ، وأنسب وسائل جمع المادة عنها، إلى جانب أكثر المداخل النظرية ملاءمة لتحليلها .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنه في خضم تعدد مجالات الأنثروبولوجيا وتفرع تخصصاتها، لم يعد الأنثروبولوجي اليوم باحثاً موسوعياً ولا شمولياً في دراسته لتاريخ الإنسان الطبيعي أو الحضاري ، كما اجتهد في ذلك المسعى عدد من الرواد الأوائل لهذا العلم . لقد أصبح على المشتغلين بالأنثروبولوجيا الآن أن يتخصصوا في واحد من المجالين الطبيعي أو الحضاري، بل نجدهم أيضاً قد اختاروا لعملهم تخصصات دقيقة داخل أي من هذين المجالين . وبالرغم من تعدد مجالات التخصص والتباين بينها أو تداخلها في بعض الأحيان سواء من نواحي الموضوعات أو المناهج أو النظريات، فإنها تعمل جميعاً – إلي حد ما – بوصفها منظومة تُغذي بعضها بعضاً، وهي تتحاور أيضاً فيما بينها والعلوم والمعارف الأخرى ذات الصلة كعلم الأحياء ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ بصفة خاصة ؛ تُعطيها وتأخذ منها في لقاء بين العقول ، ونقاش حول المفاهيم وصياغة النظريات ، بهدف تنمية المعرفة بالإنسان ومقومات حياته في ماضيه وحاضره ومستقبله .

وفى إطلالة سريعة على مجالات الدراسات والتخصصات التي تتضمنها الأنثروبولوجيا في "وعائها الموسوعي" – إن صح هذا التعبير – نشير إلى الأنثروبولوجيا الطبيعية Physical Anthropology (أو الجسمية كما تسمى أحياناً) التي تهتم بدراسة الجانب العضوي أو الحيوي للإنسان وتاريخه الطبيعي، وذلك في مقابل "الأنثروبولوجيا الثقافية" Cultural Anthropology التي يندرج تحتها مجموعة من التخصصات لمختلف الجوانب الثقافية لحياة الإنسان، يدخل في هذا الوعاء مثلاً الدراسات التي تتعلق بحياة الإنسان القديم (أو الكشف عن حضارات ما قبل التاريخ) التي يشار إليها بالأركيولوجيا (أو علم الآثار القديمة) Archeology . كما تتناول الأنثروبولوجيا الثقافية أيضاً دراسة لغات الشعوب البدائية واللهجات

المحليـــة والتأثيرات المتبادلـــة بين اللغة والثقافة التـــي يصطلـــح الأنـــثروبولوجيون على استخدامها بوصفها مفهوماً يعني به أسلوب حياة الإنسان عامة بمـــا فـــي ذلـــك النظم والتقاليد والقيم والمُنتج الفكري والمادي علـــى حـــد ســـواء . ويتخـــذ هـــذا التخصص اسم "اللغويات" Linguistics . فضـــلاً عن ذلك يوجد مجـــالان دراســـيان آخران لهما أهمية كبرى : هما الإثنوجرافيا Ethnography والإثنولوجيا Ethnology .

وبالرغم من التداخل بين المصطلحين فإن الإثنوجرافيا تعني أساســـاً بالدراســـة الوصفية لأسلوب الحياة، ومجموعة التقاليد والعادات والقيم لـــدى جماعـــة معينـــة أو مجتمع ما خلال فترة زمنية محددة؛ أمـــا الاثنولوجيـــا فتهتـــم بالدراســـة التحليليـــة والمقارنة للمادة الاثنوجرافية عبر الزمان والمكان، بهدف الوصول إلـــى تصـــورات نظريـــة بصدد مختلف النظم الاجتماعية والإنسانية من حيـــث أصولهـــا وتطورهـــا وتنوعها (٥) . وبهذا تُشكل المادة الاثنوجرافية قاعدة أساسية ولازمة لعمـــل البـــاحث الاثنولوجي، فالاثنوجرافيا والاثنولوجيا مرتبطتان بحيث تُكمل إحداهما الأخـــرى. إن التخصصات الأنثروبولوجية التي قد تتضارب مع بعضها هـــي فـــي ذاتهـــا مبعـــث الحركة والتطور في هذا العلم الجديد، وهي التي تثير الانتباه، وتعمل علـــى الإبـــداع والتجديد، هذا وتجدر الإشارة إلى أن جزءاً لا بأس به من عمل الأنثروبولوجيين يوجه نحو القضايا العملية في مجالات الصحة والإدارة والتنمية الاقتصادية ومجالات أخرى عديدة .

وأياً كانت موضوعات الدراســـات الأنثروبولوجيـــة فـــي المجـــالين الطبيعـــي والحضاري نجد أن مُسميات تخصصاتها تتنوع كما تتباين استخداماتها وأهدافها لـــدى الأنثروبُولوجيين في البلـــدان المختلفة. نذكر مثلا إن الأنثروبولوجيـــا الثقافيـــة فـــي

الولايات المتحدة الأمريكية يقابلها "الأنثروبولوجيا الاجتماعية" في إنجلترا ، حيث يركز الأنثروبولوجيون في إنجلترا على دراسة النظم الاجتماعية والعلاقات القائمة بينها إلى حد أن تتفرع عن دراساتهم تخصصات مركزة لكل نظام اجتماعي على حدة . فنقرأ في الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية مثلاً مؤلفات عن "الأنثروبولوجيا الدينية" التي ركزت دراساتها حول المعتقدات والشعائر الدينية ، ونقرأ كذلك في مجال "الأنثروبولوجيا السياسية" عن طبيعة النظم السياسية والضبط الاجتماعي في المجتمعات البدائية وصلتها بنظم القرابة والأسرة والاقتصاد والمعتقدات . هذا ويستخدم الأنثروبولوجيون الفرنسيون مصطلح "الإثنولوجيا" ليقابل ما يسميه الأمريكيون بالأنثروبولوجيا الثقافية .

وخلاصة القول في هذا العرض التمهيدي لماهية الأنثروبولوجيا، وفي كلمات موجزة ، فالأنثروبولوجيا تعد من أكثر العلوم حداثة في تاريخ أوروبا العلمي ، وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك منذ القدم اهتمامات أو دراسات عن الإنسان وحياته ، بل المقصود هنا أن الأنثروبولوجيا لم تتبلور بوصفها علماً ، وتأخذ مكانتها المستقلة كفرع جديد من المعرفة العلمية بالإنسان – وذلك على مستوى أوروبا وأمريكا – إلا في العقدين الأخيرين للقرن التاسع عشر . وبدأت الأنثروبولوجيا منذ القرن الثامن عشر معنية بدراسة التاريخ الطبيعي للإنسان، وظلت كذلك فترة طويلة، إلا أنها تطورت تدريجيا خلال عقود القرن العشرين بحيث اتسعت مجالاتها وتعددت تخصصاتها وتعمقت دراساتها . ولعل من بين ما تفردت به الأنثروبولوجيا مقارنة بالعلوم الأخرى ، طبيعية كانت أم اجتماعية ، هي شمولية نظرتها إلى الإنسان أينما كان وعبر الزمان، وحرصها على دراسته دراسة مقارنة ومُوسعة من خلال منهج يعتمد أساسا على المعاينة الشخصية والتقصي المباشر.

ومن مزايا هذا المنهج أنه يُسهم في تعميق التفكير والتأمل في الطبيعة البشرية ، من ناحية أوجه ائتلافها واختلافها وفي أسباب ذلك وعلله . فالأنثروبولوجيا تضع الإنسان على حد قول كلايد كلاكوهون أمام مرآة واسعة الأبعاد تجعله ينظر إلى ذاته بكل أبعادها وتنوعاتها (٦) .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، والإشادة به أيضا، أن المعرفة الأنثروبولوجية، سواء في إطارها الأكاديمي أو مجالها التثقيفي العام، لها أهمية كبرى ولها أيضاً قيمة عظمى . فنحن نعيش حالياً عصراً يتصف بأنه عصر المعلوماتية، ونشهد زمناً اشتد فيه الصراع الحضاري بين الشعوب في عالم يسوده تفرد بعض القوى بالتقنية المتقدمة والمدمرة معاً. فمن لديه في عالم اليوم القدرة المعرفية أو الوسيلة التقنية الأكثر تقدما والأعظم تأثيرا تتركز في يده تقاليد السيطرة والتحكم ، الأمر الذي يمنحه جبروت القوى على الضعيف وسطوته عليه . فما أحوج الإنسان الآن – أكثر من أي وقت مضى – إلى المعرفة المستنيرة الخالية من التعالي بالذات وتحقير الآخر أو التحيز ضده، فساحات المواجهة بين الشعوب تتسع يوماً بعد يوم ، واحتمالات الصدام الذي يجلب الأذى والدمار للإنسانية جمعاء قائمة، بل يعظم أمرها إلى حد البقاء أو الفناء .

وقد يتساءل البعض: ماذا يمكن للمعرفة الأنثروبولوجية أن تفعل لدرء هذا الخطر القائم والدمار اللاحق؟ كيف لها أن تُسهم في إنقاذ البشرية والحفاظ على إنسانيتها ودفعها لمواصلة رسالة ومسئولية التعمير لكوكبنا الأرضي؟! تكمن الإجابة عن هذين السؤالين في محتوى الفكر الأنثروبولوجي المعاصر ومواقف عديد من الأنثروبولوجيين، غربا وشرقاً، في طرح القضايا الإنسانية المعاصرة

ومساندتها، فمع أن الأنثروبولوجيا كانت قد بدأت مسيرتها خادمة للعنصرية الغربية ومصالح القرن الماضي الاستعمارية ، إلا أنها قطعت شوطا كبيراً خلال العقود الثلاث الماضية بصفة خاصة نحو نبذ العنصرية وإدانة الهيمنة الغربية عامة (والأمريكية بصفة خاصة) على عالم اليوم .

إن جيل الأنثروبولوجيين الصاعد خاصة أن بينهم أعداداً غفيرة من البلاد غير الغربية يرفع صوته الآن عاليا في المنتديات الفكرية المحلية وفي المؤتمرات العالمية أيضاً لتأييد حقوق الإنسان وفق الشراكة الحضارية بين الأمم، وليس التفرد الغربي لصياغة هذه الحقوق واستخداماتها غير المتوازنة (٧) . هذا إلى جانب الدعوة إلى الاحترام المتبادل بين الشعوب ، ونبذ الحرب والعمل على إحلال السلام وإنقاذ البيئة وإلا القضاء على البشرية كلية أو – على الأقل– ضياع إنسانيتها . ونتيجة لذلك، وهذه نقطة هامة، لم يعد الفكر الغربي، كما كان الأمر سابقا، المنبع الرئيسي أو الرافد الوحيد للمعرفة الأنثروبولوجية التي أضحت الآن نتاجا عالميا للشرق والغرب معاً . ليس هذا فحسب ، فأنثروبولوجيا العقود الثلاث الأخيرة من القرن العشرين جاءت مخالفة ، بل مناهضة تماما لما كان عليه فكر واستخدام الأنثربولوجيا في نفس الفترة من القرن التاسع عشر ، كما أننا نتوقع أنها لن تكون مماثلة لأي منهما في عقود القرن الحادى والعشرين . فإذا كان المجتمع الإنساني يحدد نوع العلم الذي يحتاج إليه في كل عصر ، فيجب أن نتذكر مقولة "طلال أسد" في كتابه الشهير بعنوان "الأنثروبولوجيا ومواجهة الاستعمار" : "إن الانثروبولوجيا لا تفهم العالم المحيط بها فحسب وإنما يُحدد العالم لها أيضاً كيفية فهمها" (٨) .

والآن ، ماذا عن الأنثروبولوجيا في عالمنا العربي ؟ نقول في هذا الشأن إنه على الرغم من النشأة الغربية للأنثروبولوجيا بوصفها علماً مستقلاً عن الفلسفة الاجتماعية في أواخر القرن التاسع عشر فإن العرب كانوا قد طرقوا كثيراً من موضوعاتها منذ زمن بعيد . هناك ولا شك وجهة نظر عربية إسلامية بصدد الإنسان والكون والحياة ، والتي سيجد القارئ طرحاً لبعض توجهاتها في المقالات التالية ، كما يمكن للباحثين العرب أيضاً الوقوف عليها في الأعمال التراثية المتنوعة التي تركها لنا المفكرون المسلمون العرب في مراحل تاريخية سابقة (٩) . فإذا تتبعنا دخول الفكر الأنثروبولوجي إلي العالم العربي في العصر الحديث لنجده متمثلاً أساساً في تبني فكرة النشوء والارتقاء للجنس البشري التي تأثر بها كثير من الدارسين العرب في أوروبا والتي انعكست في كتابات مرحلة الفكر الإصلاحي (سلامة موسى وإبراهيم مظهر مثلاً) ، وكذلك في محاولة تأكيد التفرقة بين العلم والدين ، وهو موقف ساد النشاط الفكري حتى نهاية أربعينيات القرن العشرين تقريباً .

لقد دخلت الأنثروبولوجيا بوصفها مقرراً دراسياً في بعض الجامعات العربية في الثلاثينيات والأربعينيات، حيث قام بتدريسها بعض الأنثروبولوجيين الأوروبيين، وكان الاتجاه السائد هو النظر إلي هذا الفرع من المعرفة بوصفه جزءاً من مادة علم الاجتماع المقارن تأثراً في ذلك بالمدرسة الإنجليزية والاتجاه الفرنسي الذي شكلت فيه الأنثروبولوجيا (أو الأثنولوجيا بمعنى أدق) ذلك الجزء من علم الاجتماع الذي يهتم بالمجتمعات البدائية (وهو الاصطلاح الذي كان شائعاً حينذاك) . ومع الاتجاه الثوري الذي ساد منذ ثورة يوليو عام ١٩٥٢ في مصر، وشيوع الأفكار المتصلة بالقومية والوحدة، ومناهضة الاستعمار، لم تجد الأنثروبولوجيا (لسابق ارتباطها بالاستعمار في مرحلة تاريخية معينة) مجالاً ملائماً للانتعاش والتطور ، إلا أنها ظلت تُدرس كأحد

المقررات الدراسية في أقسام علم الاجتماع على أيدي أساتذة علم الاجتماع الذين تلقوا تعليمهم العالي في فرنسا أو إنجلترا أساساً .

تغير هذا الوضع إلى حد ما وبخاصة منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين حين بدأت بعض الجامعات العربية في التوسع في تدريس مادة الأنثروبولوجيا وتوجيه عدد كبير (نسبيا) من طلاب الدراسات العليا إلي مجال الدراسات الانثروبولوجية. هذا إلى جانب اهتمام بعض الجامعات بفتح أقسام تخصص رئيسي في الأنثربولوجيا، أو جعلها تخصصاً مسانداً (١٠) . ربما ترجع هذه الطفرة (رغم محدوديتها) إلى عاملين رئيسين وهما : أولاً – بروز الاهتمام بدراسة الثقافة العربية من الداخل في إطار الدعوة القومية، وبخاصة فيما يتعلق بدراسات التراث الشعبي وتأكيد الهوية العربية؛ وثانياً – فقد شهدت الأنثروبولوجيا التقليدية ذاتها نقداً ومناهضة من قبل عدد كبير من الأنثروبولوجيين الغربيين أنفسهم الذين حاولوا وضع مقولة جديدة لها في إطار الفكر التحرري والتقدمي لعصر ما بعد الحرب العالمية الثانية وبداية بروز العالم الثالث.

إن المطلع على الدراسات الكثيرة التي ظهرت إبان عقدي السبعينيات والثمانينيات فيما يتصل بمحاولة وضع الأسس المعرفية والمنهجية لعلم اجتماع عربي لا يجد للأنثروبولوجيا وجوداً مؤثراً في المناقشات التي دارت ، إلا أنه بظهور الخطاب الإسلامي المعاصر ودخوله حلبة الفكر العربي في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين برزت الدعوة إلى إنشاء ما أسماه البعض "بالأنثروبولوجيا الإسلامية" ، وذلك في إطار الاتجاه نحو أسلمة العلوم الطبيعية والاجتماعية بوصفه ضرورة ملحة للإصلاح المنشود الذي يُخرج العالم العربي والإسلامي من كبوته الحالية .

وهنا نجد أنفسنا أمام إشكالية اختيار ؛ هل نريدها أنثروبولوجيا عربية (قومية) أم أنثروبولوجيا إسلامية؟ وهل نود أنثروبولوجيا واحدة أم عدة أنثروبولوجيات؟ (١١) .

إن موقفنا من هذه التساؤلات يتبلور في أن الاختيار لا بد وأن يكون في إطار العمل على تدعيم علمية الأنثروبولوجيا لا هويتها، فليس من المفيد إيستمولوجيا أو حتى عملياً – التفرقة بين ما يمكن الإشارة إليه بأنثروبولوجيا غربية مقابل أخرى غير غربية ، أو الدعوة إلى إنشاء أنثروبولوجيات قومية منفردة ومستقلة ومنعزلة الواحدة عن الأخرى . إن ما يجب عمله هو استمرار عملية النقاش والحوار والأخذ والعطاء المتوازي ، الذي يجب أن يخضع فيه أي منظور أو اتجاه ، بغض النظر عن مصدره أو أطروحته ، إلى الاختبار والفحص وإعادة الصياغة إذا دعي الأمر ، وأن يتم ذلك سواء كان ذلك المنظور أو الاتجاه يتعلق بنظريات تفسيرية أو أساليب عملية .

ومع اقتناعي ودعوتي إلي عدم تجزئة العلم، أو صياغته على أساس قومي أو عرقي أو ديني ، إلا أنني لازلت أرى أنه من الصعب جداً أن أتغاضى كلية ، أو أن أقلل من تأثير الموقف القومي أو الانتماء الطبقي أو الإطار الفكري والعقائدي على تحديد وتوجيه الأساس النظري الذي يعمل من خلاله الباحث ، بل النتائج التي يصل إليها . وعلى أية حال ، ومن خبرتي في العمل الأنثروبولوجي أجد أن قدراً من الموضوعية قد يتحقق إذا أدرك الباحث منذ البداية تأثير تلك الموجهات الذاتية أياً كان شكلها ومصدرها ، وقام بتحديدها ، وعمل على ضبطها . إن المسألة ليست سهلة في الحقيقة ولكنها تتطلب – شأنها في ذلك شأن أي جهد علمي خلاق – القدر الكبير من المحاولة والمثابرة إلى جانب الأمانة العلمية. هذا من جهة، ومن جهة

أخرى فإن نظرتنا إلى الأنثروبولوجيا من حيث هي علم ومنهج لدراسة الإنسان وثقافاته المتنوعة ، لا تمنع من وجود روافد فكرية أو أطر محلية تعمل جميعها في إطار من الحوار والأخذ والعطاء للوصول إلى أفضل الوسائل لفهمنا للإنسان وحضاراته عبر التاريخ . ولعلنا نتذكر في هذا السياق مقولة جورج سارتون ، أحد مؤرخي العلوم المشهورين أن "العلم يرتقي ويتطور كما لو أن له حياة خاصة به ، وأن الأحداث الاجتماعية الكبرى لتلقي بظلالها من قَبْلَ ومن بَعْدَ على كل المناشط الإنسانية علمية وغير علمية . ومهما يكن من أمر العلم ، وما به من حيوية واستقلال ، فإنه لا يتقدم ولا يزدهر في فراغ سياسي" (١٣) .

عن الأنثروبولوجيا قالوا :

(١)

"إن علم الأنثروبولوجيا هو تحديدا مسألة فهم ، أتمنى أن يفهم أبناء مجتمع ما أو ثقافة ما أبناء مجتمع أو ثقافة أخرى . وإذا افترضنا أن علم الأنثروبولوجيا يقدم حلولاً لمشاكل معينة ، فالحل في الواقع يتمثل في الفهم أساساً" .

مايكل كاريذس

أنثروبولوجي بريطاني معاصر

(٢)

"الأنثروبولوجيا هي دراسة الإنسان عبر جسده ومجتمعاته وإنتاجه وأساليب اتصاله ولغاته وثقافته . فالأنثروبولوجيا تسعى إلى تبيان العلاقات القائمة بين هذه النشاطات على اختلافها، وبين الثقافة الشاملة التي تتدرج ضمنها تلك النشاطات . وإذا كانت الأنثروبولوجيا تتوصل إلى بلورة هذا التوليف العريض فهي إنما تتوصل إلى ذلك عن طريق مقولة الثقافة" .

ألفريد كروبر

أنثروبولوجي أمريكي

(١٨٧٦ - ١٩٦٠)

(٣)

"إذا كان علم الأنثروبولوجيا (أو علم الإنسان) هو علم حديث على مستوى أوروبا وأمريكا فأصوله في مصر ترجع إلى العصور القديمة حيث ترك المصري أهم متحف انثروبولوجي خالد بالصورة واللون والنحت والجداريات وشواهد العمارة التي أنجزها القلب المصري العامر بالإيمان والبصيرة والقيم الإنسانية . وكانت الفلسفة المصرية حقيقة معاشه تزخر بها مفردات الحياة اليومية وجوهرها الإيمان بما ترى من صنع اللّه وتعيش بما تحقق من صنع الإنسان .

إن هذا العلم (أي الأنثروبولوجيا) الذي أسسته مصر القديمة يُعطي له الاهتمام الأول في جامعات العالم الآن لتحقيق الفهم الحقيقي لمشاكل الإنسان وقضاياه ، كما أنه أصبح - أيضاً - من أدوات السياسيين والمستعمرين الجدد ووسائلهم لاختراق وجدان الشعوب عبر فهم مفردات التكوين والتفكير بقصد السيطرة وفرض الهيمنة . فإذا كان العالم يعتبر الأنثروبولوجيا علم الساعة ، وإذا كانت بعض استخداماتها تضل وتتجاوز لتكون من آليات السيطرة على الإنسان ، فماذا يمكن أن يحقق إذا عاد جوهرها الأصيل ليكون أساساً للتنمية الإنسانية القادرة على أن تصل إلى الإنسان وبالإنسان" .

*مقتطف من مقال لسكينة فؤاد، صحفية مصرية (جريدة الأهرام)

الإحالات والحواشي :

(١) للحصول على مزيد من المعلومات عن تعريف الأنثروبولوجيا وتأريخها: انظر الفصل الأول من كتابنا "قصة الأنثروبولوجيا : فصول في تاريخ علم الإنسان" . سلسلة عالم المعرفة، الكويت ، عدد ٩٨ عام ١٩٨٦ . طالع أيضاً ما ورد عن الأنثروبولوجيا في الموسوعة الفلسفية العربية ، الجزء الأول ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٦ .

(٢) تغلب هذه التسمية على الترجمات التي تصدر عن دور النشر اللبنانية والسورية ، وتأتي الترجمة على أساس اشتقاقها من الكلمتين العربيتين "الناس" "والإنسان" .

(٣) يذكر الباحث الفرنسي "جان بواربيه" أن كلمة "أنثروبولوجيا" ظهرت بدايةً في كتابات علماْء الطبيعة ، وربما كان عالم الطبيعة الألماني "جوهان بلو مينباخ" أول من استخدمها في كتابه الذي صدر عام ١٧٩٥ بعنوان "التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر" . ويذكر "بواربيه" أيضا أن الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانت" أشاع استخدام كلمة الأنثروبولوجيا في الدوائر الأكاديمية بعد ورودها في عنوان كتابه "الانثروبولوجيا من منظور عملي" الذي درس فيه موضوع تصنيف البشر .

(٤) زالت مقولة "البدائية" الآن تماماً من الأدبيات الأنثروبولوجية المعاصرة . لمعرفة تفاصيل مقولة البدائية ونقدها طالع كتاب "البدائية" ، تأليف أشلي مونتاغيو ، سلسلة عالم المعرفة الكويت ، مايو ١٩٨٢ .

(٥) انظر كتاب "جاك لومبار" ، مدخل الاثنولوجيا ، ترجمة حسن قبيسي ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٧ ، ص ٢٠ .

(٦) كلايد كلاكوهون أنثروبولوجي أمريكي (١٩٠٥-١٩٦٠) وهو من رواد الاتجاه النفسي في دراسة الثقافات الإنسانية .

(٧)

Hussein Fahim (ed.). Indigenous Anthropology in Non-Western Countries. Academic press, Durham, 1981.

(٨)

Talal Asad. Anthropology and the Colonial Encounter. New York : Humanities Press, 1975.

(٩) طالع الفصل الثامن من الكتاب التالي

Sayed H. Nassr. Science and Civilization in Islam . Barnes and Noble Books : New York, 1992.

(١٠) نجد أن الجامعات الأوروبية ذاتها التي نشأت وتطورت فيها الأنثروبولوجيا قد شهدت الأخرى خلال العقود الثلاث الماضية توسعاً كبيراً في إنشاء أقسام الأنثروبولوجيا ، كما لوحظ تضاعف أعداد الطلاب المسجلين في المقررات الدراسية للأنثروبولوجيا، ومما يلفت النظر أن عدداً كبيراً منهم قد جاءوا من تخصصات العلوم الطبيعية والهندسة (١) .

(١١) طرقنا هذا الموضوع في مقال لنا بعنوان "الانتلجنسيا العربية : المفكرون والسلطة" . تحرير سعد إبراهيم ، منتدى الفكر العربي ، عمان ، ١٩٨٨ ونشير أيضاً إلي كتاب أحمد أكبر الباحث الباكستاني بعنوان "أسلمة الأنثروبولوجيا" وكتابه أيضاً "الإسلام وأنثروبولوجيا ما بعد الحداثة"

(مترجمان) ، وعلى القارئ أيضاً مراجعة مقالات في مجلة العلوم الاجتماعية الإسلامية التي ينشرها المعهد الدولي للفكر الإسلامي ، واشنطن دي.سي ، الولايات المتحدة الأمريكية .

(١٢) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر مقدمة كتابنا المشار إليه في قائمة الهوامش رقم٧. وكذلك مقالنا التالي :

Remarks On Foreign and Indigenous Anthropology. Human Organization, No. 36, 1976.

(١٣) جورج سارتون . تاريخ العلوم والإنسية الجديدة (مترجم) دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٨٥ .